البَابُ الأول

نظرة عامة الى موضوع الكتاب

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الأول

نظرة عامة إلى موضوع الكتاب

١ — علم الأخلاق : دراسة الخير الأقصى للانسان - التفرقة بينه وبين العلم الالهى - دراسة الخير المطلق .

٢ — تميز الأخلاق تميزاً جزئياً عن علم السياسة .

٣ — علم الأخلاق وعلم النفس .

٤ — علم الأخلاق : دراسة الواجب أو السلوك القويم

٥ — علم الأخلاق وفقه القانون - نشأة الملكة الخلقية - الارادة الحرة - نظرة مجملة لعلم الأخلاق .

من العسير أن يحدد موضوع الأخلاق تحديداً يرتضيه الجميع ، لأن طبيعته وعلاقاته بغيره ، يختلف فى فهمها العلماء فى مختلف المدارس ، ولهذا يتصوره المثقفون بوجه عام تصوراً غير محدود . وقد خطر لى أن أوثر البدء فى هذا الفصل التمهيدى بالتوسع تدريجياً فى مختلف وجهات النظر التى اضطر العقل البشرى إلى الأخذ بها فى موضوعات البحث الخلقى وعلاقته بالمواد التى تتصل به كالإلهيات والسياسة وعلم النفس ، ثم أنتهى إلى رأى بصدد هذه الموضوعات ، وبيان الأقسام الرئيسية للموضوع الذى أعتزم دراسته ، محاولا فى نفس الوقت أن أعالجها على حدة وأن تكون دراستى لها شاملة ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

١ - علم الأخلاق - دراسة الخير الأقصى للإنسان :

إن اشتقاق كلمة Ethics مضلل بعض التضليل ، لأن كلمة ἠθικὰ [1] يقصد بها فى الأصل ، ما يتصل بالخلق متميزاً عن الإدراك ، ولكن سمات الخلق التى نسميها فضائل ورذائل ، لا تكون إلا عنصراً واحداً فى موضوع البحث الذى كتبه أرسطو ، وجعل ذلك الفظ ἠθικὰ دالا عليه . ويرى أرسطو - وهو رأى الفلسفة اليونانية بوجه عام ، ونفس الرأى الذى شاع الأخذ به فيما بعد ، أن موضوع البحث الخلقى الرئيسى ، هو كل ما تتضمنه فكرة ما هو خير أقصى ، أو مرغوب فيه عند الإنسان ، أى كل ما يقع عليه اختياره أو يلتمسه ويسعى إليه عن عقل ، لا كوسيلة لتحقيق غاية بعيدة ، بل باعتباره غاية لذاته .

التفرقة بينه وبين العلم الإلهى - دراسة الخير المطلق :

وقولنا المرغوب فيه « عند الإنسان » - فى تعريفنا السالف - له خطره فى التمييز بين موضوع علم الأخلاق والخير المطلق أو خير المجموع الذى يمكن اعتباره موضوعا للعلم الإلهى بمعناه الواسع ، الذى لا يتضمن إلا افتراض خير أو غاية قصوى يعمل على تحقيقها كل سير العالم - كما هو معروف لنا بالتجربة - وهو كيفما كان مجرد وسيلة ، وليس من المحتوم ربط الشخصية بهذا الخير أو تلك الغاية . ومهما يكن من شىء فقد استنفد التوصل إلى التمييز بين علم الأخلاق والعلم الإلهى فى تقدم التفكير الأخلاقى زمناً وجهداً ، إذ كان علم الأخلاق والعلم الإلهى فى المذهب

---

(١) تنطق هذه الكلمة اليونانية (إثيكا) وهى الأصل فى اشتقاق الكلمة الانجليزية (Ethics) بمعنى « علم الأخلاق » . « المترجمان »

الأفلاطونى ـ كما سنرى بعد ـ ممتزجين امتزاجاً كاملا . ولا ينبغى كذلك أن يفهم التمييز بين الأخلاق والإلهيات على أنه تفرقة تامة بين موضوعيهما ، بل إننا نلاحظ على عكس ذلك ، أن كل مذهب فلسفى على وجه التقريب ، ينظر فيه إلى أنه للعالم خيراً أو غاية قصوى ، يدرك فيه خير الجنس البشرى على أنه هو نفسه الخير العام (المطلق) أومتضمن فيه أو وثيق الاتصال به على أى حال .

٢ ـ تميز الأخلاق تميزاً جزئيا عن علم السياسة :

بل إن التعريف الذى أسلفناه لم يفصل بعد بين علم الأخلاق وعلم السياسة فصلا بينا ، لأن السياسة تعنى كذلك بخير الناس ورفاهيتهم باعتبارهم أعضاء فى دولة ، والواقع أن لفظ Ethics يستخدم فى بعض الأحيان ـ حتى عند المحدثين من الكتاب ـ فى معنى فضفاض يتضمن على أقل تقدير جزءاً من علم السياسة ، كالنظر فى غاية الدولة القصوى أو خيرها الأسمى ، والمستوى أو المقياس العام الذى يحدد خيرية النظم السياسية أو شريتها .

على أن من الشائع كذلك ، استخدام لفظ Ethics فى معنى ضيق يعادل قولنا « علم الأخلاق الخاص » الذى يفضل أحياناً للدلالة على دراسة خير الإنسان أو رفاهيته ، متى كان من الممكن أن يتحقق هذا الخير عن طريق النشاط العقلى عند الأفراد بما هم أفراد .

وهذا المعنى الأخير هوالذى قصرت عليه إجمالا علم الأخلاق فى العرض التاريخى التالى ، وفى نفس الوقت لم أحاول أن أفصل كل الفصل بين الموضوعين ، لأن العلاقة بينهما ـ على أقل تقدير فى كثير من المذاهب التى

يتعين علينا أن نعالجها ـ تبدو وثيقة جداً ، وليس من العسير أن نتبين صعوبة الفصل بينهما ، سواء أدنونا من الحدود التى تفصل بينهما من ناحية الأخلاق أم من ناحية السياسة ، لأنا نلاحظ من ناحية أن الناس فرادى ، هم بوجه عام أعضاء فى جماعة سياسية أو هيئة لها حكومة ، وما نسميه فضائل عندهم ، إنما تبين عنه بوجه خاص معاملاتهم لرفاقهم ، وأظهر لذاتهم وآلامهم قد صدر كله أو بعضه من علاقاتهم بغيرهم من الناس ، ولهذا فإن أكثر الذين يعتبرون الفضيلة أو اللذة المقوم الوحيد أو الرئيسى للخير الأسمى عند الإنسان ، مضطرون إلى التسليم بأن هذا الخير لا يلتمس فى حياة عزلة تنسكية يهمل فيها خير الجماعة ورفاهيتها . إنهم مضطرون إلى التسليم بأن « لعلم الأخلاق الخاص » جانباً سياسياً ، ومن المتفق عليه ـ من ناحية أخرى ـ أن أقصى مقصد رئيسى للرجل السياسى ، إنما هو العمل على ترقية الخير عند مواطنيه المعاصرين له ، وعند الأجيال المقبلة منهم باعتبارهم أفراداً. ولهذا وجب أن يكون البحث فى خواص هذا الخير جزءاً متمما لعلم السياسة . ومع هذا فإنا ـ إلى حد كبير ـ قد ندرس عناصر الخير وشروطه عند الناس فرادى ، طالما كان من الممكن أن يتحقق هذا الخير عن طريق النشاط العقلى الذى يقومون به أنفسهم أو يقوم به أفراد آخر يمثلون أشخاصاً بعينهم ، من غير اعتبار للطريقة التى يتعين بها شكل الحكومة ووظائفها بالنظر إلى نفس الغاية ، وعلى هذا فسينصب اهتمامنا فى الصفحات التالية على أول هذين الموضوعين (الأخلاق) مميزاً عن الموضوع الآخر (السياسة).

٣ - علم الأخلاق وعلم النفس :

ومهما يكن من شىء فإننا حين نتصور الفرد منعزلا على حدة ما أمكن

ذلك ، لكى نتأمل فيه من وجهة نظر أخلاقية ، تتكشف أمامنا علاقة أخرى لعلم الأخلاق ، هى علاقته بعلم النفس الذى يعنى بدراسة الإنسان من الناحية النفسية أو العقلية . وسرعان ما يهدينا النظر العقلى إلى أن الخير الحقيقى للإنسان ، لا يمكن أن يتمثل فى شىء خارجى أو مادى كالثروة مثلا ، بل لا يقوم حتى فى مجرد الصحة التى يتمتع بها الجسم ، تلك الصحة التى أظهرت التجربة إقترانها بالإفراط فى الشر والتناهى فى الشقاء . ويلوح لنا أننا نبنى حكمنا على الناس بأنهم أخيار أو أشرار ـ شجعان عدول أهل عفة ، أو على النقيض من ذلك ، على أساس ما نلحظه فى سلوكهم من آثار خارجية . ومع هذا فان المفكرين متفقون بوجه عام على أن مثل هذه الأحكام سطحية وعرضة لأن تكون خاطئة ، وأنمن الضرورى أن تتوافر فى صاحب الفعل (الأخلاقى) حالة عقلية خاصة ، وأن يكون له مقصد معين ، وغرض يسعى إليه ، وباعث أو ميل يدفعه للعمل ، حتى يتيسر لنا أن نعتبر العمل خيراً من وجهة النظر الأخلاقية . ثم إننا حين نحلل الآثار الخارجية السالفة الذكر بدورها ، نجد أن ما اعتبرناه بحق خيراً أو شراً أقصى ، يكاد يكون فى كل الحالات نتائج لوجدانات الناس وغيرهم من كائنات حساسة ، أو نتائج للخلق الإنسانى والإرادة البشرية . ولهذا فإن جميع مدارس الأخلاق تكاد تكون على اتفاق فى أن الغرض الرئيسى من البحث الخلقى ، يجب أن يكون على اتصال بالجانب النفسى فى حياة الإنسان سواء :

(١) أسلم أتباع هذه المدارس ، بأن غاية الإنسان القصوى ، تقوم فى وجوده النفسى باعتباره لا يعدو أن يكون صاحب حس وعاطفة ، موحدين بين هذا الوجود النفسى وبعض ضروب الوجدانات أو اللذات المرغوب

فيها أو بينه وبين نوع أو عدة أنواع من هذه الوجدانات .

(٢) أم رأوا بالأحرى أن خير العقل يجب أن يقوم فقط ـ أو بوجه خاص فى نوع نشاطه ـ أى فى كماله الأخلاقى .

وحين نحاول أن نصوغ كلا من وجهتى النظر فى مذهب واضح كامل ، نجد أنا مسوقون حتما إلى دراسات سيكولوجية أبعد مدى :

إما : (١) لكى نختبر مختلف أنواع اللذة والألم ونعرف درجاتهما المتباينة .

(٢) أو لكى نحدد طبيعة الفضائل المختلفة أو صفات الخلق الخيرة وأضدادها ، ونعرف العلاقات المتبادلة بينها .

وقد عرضت للحديث عن خير الإنسان باعتباره موضوع اختيار أو مقصد مبعثه التفكير . وقد أردت بهذا أن أميز بينه وبين موضوع الدوافع التى لا تعدو أن تكون حسية ووجدانية ، وهى الدوافع التى تكفل الحض على العمل المضاد للخير الحقيق كما يدركه الإنسان . ولكن فكرة « الإختيار العقلى » أو « الحض على العمل » تقوم على التروى الذى تكتنفه مصاعب ، ويبدو للبعض أن الدافع الأقصى للعمل يصدر دائماً عن الشعور لا عن العقل ، ومن هنا كان التحليل السيكولوجى الدقيق ضروريا للإبانة عن عمل العقل العادى فى الفعل الذى نسميه عقلياً ، وللكشف بوجه خاص عن علاقته بالرغبات أو مظاهر النفور التى تنشأ ـ فى بعض الحالات على الأقل ـ مستقلة عن العقل ، وتبدو فى حالة صراع معه . وإلى جانب هذا كان علماء الأخلاق ـ أثناء الجدل الذى ثار بينهم بصدد ماهو خير حقيق أو مرغوب فيه ـ أى بصدد طبيعة الخير الأساسية التى أسلفنا توضيحها ـ كان هؤلاء العلماء يلجأون على الدوام إلى رغبات الإنسان الواقعية فى شرح

وجهات نظرهم على افتراض أن ماينشده الإنسان ويرغب فيـــه بحق ، يطابق ما يرغب فيه بطبيعته أو باستمرار أو بوجه عام . وهكذا نجد ألا مناص من أن تنتهى المسـائل الخلقية بشتى الطرق إلى الأبحـاث السيكولوچية . بل فى وسعنا أن نقول إن جميع الأفكار الأخلاقية الهامة ، هى حقائق سيكولوچية كذلك ، مع جواز استثنـاء التقابل الأسـاسى بين « الخـير » و « الشر » والاستقـامة والفساد ، مما لا يعنى عـلم النفس عن طريق مباشر ، لأنه يعـالج البحث فيما هو كائن ، لا فيما ينبغى أن يكون[1] .

٤ - علم الأخلاق - دراسة الواجب أو السلوك القويم :

إن التقابل السالف الذكر - بين الخير والشر ، والاستقامة والفسـاد ، كثيراً ما يعتـبر تعبيراً عن شيء واحـد ، والواقـع سيـان أن نقول - فى الأغراض العـادية - « سـلوك قويم .. أو خـير » ، و « بواعث فاسـدة أو أو شريرة » وإذا أمعنـا النظر فى هـذا الموضوع ، وجدنا أن الفـكرة الشـائعة عما هو خير لـكائن بشرى - حتى إذا قصرنا الحديث على ماهو « خير أقصى » أو « خـير فى ذاته » لا على ما يكون مجرد وسيلة لتحقيق غاية أبعد منه - تتضمن معنى أوسع من الفـكرة الشائعة عن الاستقـامة بالنسبة للإنسـان أو إدائه لواجبه ، بل تتضمن - فـكرة الخير - أيضاً مصلحته أو سعـادته . وما من شك فى شيوع الاعتقاد بأن أفضل ما يستطيع الإنسـان عمله وأقصـاه

---

(١) علم الأخلاق أضيق مجالا من علم النفس من حيث إنه ينصب على دراسة السلوك الانسانى الذى يصدر عن عقل مدرك وإرادة حرة ، ويستبعد من مجاله كل سلوك لا يدخل فى هذا المجال ، أما علم النفس فانه يدرس السـلوك فى كل صوره - سلوك الحيوان والطفل والمجنون والشاذ . . . بالاضافة إلى أن علم الأخلاق علم معيارى normative - بالمعنى الذى أسلفناه فى المقدمة . وأما علم النفس فهو علم وضعى positive لأنه يدرس الظواهر الوجدانية كما هى لا كما ينبغى أن تكون «المترجمان» .

هو أن يؤدى واجبه ، وأن قيامه بالواجب كفيل بأن يحقق مصلحته الحقيقية أو يناله سعادته . ولكن هذا لا يلزم عنه أن تكون فكرة الواجب وفكرة المصلحة شيئاً واحداً ، بل لا ينشأ عنه إمكان معرفة الصلة الدائمة بينهما معرفة علمية ، والتدليل عليها بالبرهان ، فإن هذه العلاقة كثيراً ما ينظر إليها المحدثون من العلماء كمسألة عقيدة ـ كشيء تركته العناية الإلهية مشوبا بالغموض ، حتى يؤدّى الواجب باعتباره واجباً ولا يكون مرد أدائه إلى مجرد تقدير لمحبة الذات .

ومن هنا نصل إلى تصور آخر لعلم الأخلاق ، يبدو فيه معنياً بوجه خاص بالقواعد العامة التى يقوم عليها الواجب أو العمل القويم ـ وهى التى تسمى أحياناً بمجموعة القوانين أو الشرائع الخلقية ـ على اعتبار أنها مفروضة على كل إنسان ، بحيث يطيعها بغض النظر عن مصلحته الشخصية ، فإن صلة الواجب بسعادة الإنسان الخاصة ، تعتبر شيئاً ثانوياً فى نظر الأخلاق . ومن هذه الوجهة تتصل دراسات الأخلاق عن طريق جديد بالإلهيات ، إلى الحد الذى تعتبر فيه قواعد الواجب بمجموعة قوانين وضعت عن التشريع الإلهى . بل إنها تتصل إلى جانب هذا ـ كما سنرى ـ بفقه القانون المجرد اتصالا وثيقاً من حيث إن هذا العلم معنى بدراسة قواعد القانون التى يدركها العقل على أنها صادقة صدقا طبيعياً ومطلقاً ، ومن ثم فإن طاعتها مفروضة على الناس من غير تشريع إنسانى يفرض عقاباً قانونياً على من يعصيها ، لأن مثل هذه القواعد القانونية يجب أن تكون فى كل الحالات جزءاً كبيراً من مجموعة القوانين الخلقية ـ وإن كانت لا تكون كل هذه المجموعة . وفى وسعنا أن نقابل بين هذا الرأى فى تصور الأخلاق باعتباره اتجاهاً حديثاً وبين الرأى الذى أسلفناه من قبل ، وهو الذى شاع

عند فلاسفة اليونان بوجه عام[1] . والانتقال من الرأى القديم إلى الرأى الحديث يعزى إلى تأثير المسيحية بوجه خاص ، وإلى تأثير فقه القانون الرومانى بوجه عام . ومن المحقق أن فكرة قانون الآلهة الثابت غير المكتوب لم يخل منها قط النظر الأخلاقى عند الأغريق ، ومع ذلك فإن فكرة القانون لم تعالج باعتبارها آخر تصور أساسى انتهت إليه المذاهب الأخلاقية القديمة ؛ ومرجع هذا إلى أنها تفترض أن الإنسان ككائن عاقل من واجبه أن يشعر خيره الأسمى فى حياته الدنيا ، ولذلك فان القوانين التى يلزم بطاعتها يجب أن تبدو وسائل مؤدية لتحقيق هذا الخير ، أو خصائص فيها يتحقق هذا الخير . والتغير الذى أحدثته المسيحية فى هذا الصدد يبدو عند النظر إلى آثاره فى الجنس البشرى بوجه عام أجل شأنا منه إذا قصرنا النظر على تأثيره فى العقول التى تغلغلت فيها الروح الدينية تغلغلا كاملا . ذلك لأن القديس المسيحى الصادق قد عاش حتى على هذه الأرض حياة لا تقل عن حياة الفيلسوف الوثنى ، من حيث إن ذلك القديس قد آثرها على سائر أساليب الحياة الدنيا ، وكما عاش الفيلسوف الأفلاطونى حياة لم يكن جوهرها الفضيلة العملية بقدر ما كان جوهرها قائماً فى مظهرها الخارجى . ومع هذا فإن هذه الحياة الدنيوية لم توفر للقديس غير جزء ضئيل من التمتع سلفاً بالنعيم المقيم الذى أمل فيه . وفى رأى الكثيرين من عامة المسيحيين يتلاشى الخير الأقصى للإنسان بالإمعان فى مجرد التأمل الأخلاقى فى الإشراق اللانهائى (المطلق) لحياة سعيدة مقبلة ، يمنحها الله بطريقة خارقة للعادة جزاء وفاقا على طاعة

---

(١) هذه العبارة ينقصها بعض التحديد ، كما تطبق على المذهب الرواقى ، الذى تم على يد أصحابه - كما سيظهر عاجلا - الانتقال من طريقة التفكير القديمة إلى طريقة التفكير الحديثة . انظر الفقرة الخامسة عشرة والتاسعة عشرة من الباب الثانى والفقرة الأولى من الباب الرابع .

قوانينه ، بل لعل الأحرى أن نقول إن جمهور المسيحيين يرى أن مجموعة القوانين الأخلاقية أقرب ما تكون شبهاً بالشرائع الإنسانية من حيث إنها مؤيدة بالقصاص[1] ، وربما كان الخوف من عذاب الجحيم - فى كل عصور المسيحية - باعثاً أقوى فى حمل الناس على تجنب الرذيلة ، من الأمل فى نعيم الجنة . وعلى أى الحالين ، قد أصبح أقصى خير أو شر للإنسان شيئاً يمكن تخيله ووصفه وصفاً بليغاً ، ولكنه لا يعرف على وجه الدقة ولا يخضع للبحث العلمى ، وبهذا حدد موضوع علم الأخلاق نفسه من جديد ، كقانون خلقى ، وهو مجموعة قواعد مفروضة على الناس إطلاقا ، وقد وضعت لهداية السلوك الإنسانى وإرشاده وإن لم يدع أصحابها انطواءها على رأى دقيق فى الخير الإنسانى .

٥ - علم الأخلاق وفقه القانون :

كان الاعتقاد الشائع عند رجال الكنيسة المسيحية فى أولى مراحل تاريخها ، أن قواعد الأخلاق - فى جملتها إن لم تكن بحذافيرها - قد تكشف

---

(١) كان المتأخرون من مفكرى اللاهوت فى العصر الوسيط - من أمثال دانز سكوت ووليام أوكام - يردون الالزام فى القوانين الأخلاقية إلى سلطة خارج الذات هى إرادة الله وأحكامه المطاعة أو هى الوعد والوعيد ، الجنة والنار فى الكتب المقدسة ، فالخير يكون خيراً لأن الله أراده كذلك ، ولو أراد الله أن يكون عكس ذلك لكان ما أراد . . ومن الأخلاقيين (أمثال توماس هوبز) من رد القوانين الأخلاقية إلى سلطة الحاكم السياسى المطلق أو الدولة التى تقرر خيرية الأفعال أو شريتها . وقد كان الرواقية يرون أن الأفعال بريئة عن الخير والشر - على الحياد - ولكنها تكتسب صفة الخير والشر وفقاً للغاية التى تهدف إليها ، ولكن كدورث - من أفلاطونيى كيمبردج - كان يرى وجود فروق جوهرية أبدية بين الخير والشر مستقلة عن تحكم الارادة الالهية والانسانية على السواء ، ومثل هذا نراه عند المعتزلة فى الاسلام لأنهم رأوا أن فى طبيعة الفعل مايجعله حسناً أو قبيحاً ومن هنا جاءت سلطة العقل وقدرته على معرفة الخير والشر ولو لم يرد بهما شرع . « المترجمان »

عنهـــا الوحى، ولم تعرف عن طريق العقل المحض ، ولهـــذا من كان الطبيعى أن يقع على عاتق رجال اللاهوت تأويل هـذه القواعد التى وضعت عن الشريعة الإلهية ، وكان على القساوسة أن يعملوا على تطبيقها ، ولكن عند ما شرع المدرسيون فى دراسة علم الأخـــلاق دراسة فلسفية ، بدأ يتضح فى جلاء اتصال عنصرين فى هـــذه القوانين : عنصر يتميز بالطابع المسيحى ، وعنصر يمكن إدراكه عن طريق العقل الطبيعى ، قد فرض على كل إنسان مستقلا عن الوحى . ويبدو لنا أن تطور فقه القانون النظرى الذى أعقب إحياء دراسة القانون الرومانى إبان القرن الثـــانى عشر ، قد أدى إلى قيام نظرية دقيقة فى العنصر الثانى . ثم تجلت فكرة قانون الطبيعة فى الدراسات المتأخرة التى تناولت مبادىء القانون فى روما ، وعدلت هـــذه الفكرة فى سهولة وبغير تكلف لكى تمثـــل العنصر الذى بدا فى الأخلاق مستقلا عن الوحى . ومن الحق أن يقال إن القانون الطبيعى الذى عنى به فلاسفة القانون لم يكن معنياً بالسلوك القويم بوجه عام ، بل اقتصر على معالجة مثل هـــذه الأعمال الصالحة (أو التعفف عن الخطأ) كما يستلزمها إشباع مطالب الآخرين المشروعة ، ومن ثم لم يكن من الصواب توحيد هـذا القـــانون الطبيعى مع أكثر من جـــزء فى مجموعة القوانين الخلقية . ومهما يكن من شىء فإن هذا الجزء كان من الأهمية البـــالغة بحيث إن التمييز الذى لاحظناه الآن كان يهمله مفكرو العصر الوسيط وبدء العصر الحديث فى كثير من الأحيان ، أو يعرضون له باعتباره شيئاً ثانوياً ، واعتبرت فكرة القانون الطبيعى متفقة مع الأخلاق بوجه عام ، من حيث إنها تدرك عن طريق العقل وتتمشى مع السلوك الخارجى .

نشأة الملكة الخلقية :

ويتصل بهذه النظرة القانونية للأخلاق بوجه خاص ، القول بأن البحث فى نشأة الملكة الخلقية قد شغل مكاناً بارزاً فى الدراسات الحديثة التى تناولت علم الأخلاق . ولما كان الذى يهيمن على الإنسان ، أو ينبغى أن يهيمن على تصرفاته ، ينظر إليه على أنه ليس إلا الملكة التى تمكننا من إدراك خيرنا الحقيق وأسبابه وشروطه الرئيسية ، كان من العسير أن نرى أهمية للبحث فى كيف نشأت هذه الملكة ، أكثر مما يرى المشتغل بالهندسة أهمية للبحث الذى يستقصى نشأة الملكة التى تدرك المكان . ولكن حينما بدأت الملكة الخلقية تدرك على أنها الضمير ـ ونعنى به ملكة تدرك القواعد التى تفرض على الناس إطلاقاً ، بحيث ينصاع لها الإنسان دون نظر إلى مصلحة ظاهرة تعنيه . وهذا الضمير مشرع فى باطن الإنسان ، يطالب بالسيطرة المطلقة التى لايحدها قيد ولاشرط ، على كافة المنابع التى تصدر عنها أعمال الإنسان.حينما بدأت تلك الملكة الخلقية تدرك على هذا النحو كان من المنتظر أن تكون شرعية هذا الادعاء موضع اعتراض وبحث دقيق ، وليس من العسير أن نفهم كيف أن هذه المشروعية قد ظن أنها تعتمد على أصالة الملكة ، أى على كونها جزءاً من النموذج أو الصورة التى نشأت فى الأصل على أساسه طبيعة الإنسان . وعلى هذا كان من المألوف اعتبار البحث فى الحياة الخلقية عند الأطفال والهمج ، بل حتى عند الحيوانات ، كما اعتبرت بعض النظريات الافتراضية فى نمو النفس وتطورها ، ملحقا أو مقدمة ضرورية للبحث الخلقى الحديث .

الارادة الحرة :

وهكذا أصبح للبحث فى الإرادة الحرة خطره، عن طريق التصور القانونى لعلم الأخلاق ، فالرجل العادى لايبحث بطبيعة الحال فيما إذا كان حراً أو غير حر حين ينشد خيره الخاص ، متى عرف ما هو هذا الخير وأدرك أن تحقيقه ممكن عن طريق العمل الاختيارى ، ولكن عندما يقارن سلوكه بمجموعة شرائع وضعت عقوبات توقع على من يعصون أوامرها ، يصبح النظر فى إمكان إطاعته للقانون الذى يحاكم بمقتضاه أمراً بيناً لامناص منه ، إذ أن توقيع العقاب عليه فى حالة عجزه عن طاعة القانون يبدو منافيا لفكرتنا عن العدالة [1]

نظرة مجملة لعلم الاخلاق :

وصفوة القول إن موضوع الأخلاق إذا نظرنا إليه نظرة شاملة ، بدا متضمنا لما يلى :

(١) البحث فى مقومات الخير وشروطه عند الناس باعتبارهم أفراداً ، ويتخذ هذا البحث بوجه خاص صورة اختبار للطبيعة العامة والأنواع الخاصة لما يلى : (ا) الفضيلة (ب) واللذة والوسائل المؤدية إلى تحقيق هاتين الغايتين .

---

(١) كانت الارادة الحرة - أو موضوع الجبر والاختيار - مثاراً لجدل عنيف بين علماء الاخلاق ورجال القانون على السواء ، ولكن القوانين الوضعية - ومنها المصرى - تتمشى مع المذهب التقليدى فى المسئولية وهو الذى يقوم على اعتبار الانسان حر الاختيار . وأما الاخلاق فقد وضعت فيها مذاهب كثيرة متضاربة لعل أقواها اليوم مذهب الجبر الذاتى Self-determinism - وهو الذى يفترض قيام الحرية مقيدة بطبيعة صاحبها وشخصيته وسنفصل الحديث عن هذا المذهب وغيره فى كتاب لنا نضعه الآن عن « المسئولية » دراسة مقارنة فى مذاهب الاخلاق وتشريع الاسلام والقانون الجنائى. « المترجمان »

(٢) البحث فى مبادىء الواجب أو القانون الخلقى وأهم تفاصيـــله ـ من حيث إنه متميز من الفضيلة .

(٣) البحث فى طبيعـة ونشأة الملكة التى يدرك بها الواجب ، بل البحث فى نصيب العقـــل فى عمل الإنسان بوجه عام ، وصلتـــه بمختلف أنواع الرغبة والكراهية .

(٤) اختبار مسألة الإرادة الحرة عند الإنسان .

ويتصـل علم الأخلاق بالعـــلم الإلهى من حيث إن الخير العـام المطلق يشمل الخير الإنسانى أو يضارعه ، ومن حيث إن الأخلاق بمجمـــوعة قوانين شرعها للناس إله .

ويتصل علم الأخلاق بعـــلم السياسة من حيث إن الخير عند الفرد مرتبط بخير مجتمعه .

ويتصل كذلك بفقه القانون ـ إن كان هذا منفصلا عن السياســـة ـ من حيث إن الأخلاق تطابق القانون الطبيعى .

وأخيراً نلاحـــظ أن كل فرع من فروع البحث الخلقى يكاد يتصل ـ فى بعض نواحيه على أقل تقدير ـ بعـــلم النفس ، والأبحاث التى تتنـاول نشأة الملكة الخلقية وحرية الإرادة أبحاث سيكلوجية محضة ، إلا إذا اعتبرنا عـــلم النفس متميزا عن علم ما بعد الطبيعة (المتـافيزيقا) ونظرنا إليه على أنه علم تجريبى بحت ، فإن مباحث الإرادة الحرة قد تستبعد من نطاق عـــلم النفس وتدخل فى مجال ما بعد الطبيعة .

وسنبدأ الآن بتتبع تطور التفكير الخلقى بايجاز منذ نشأته فى أوربا إلى عصرنا الحاضر ، وسنقصر اهتمامنا إبان المرحلة الأخيرة من هـــذا العصر على أساليب التفكير التى بدت فى انجلترا أو كان لها أثر ملحوظ هناك .

وجدير بنا أن نلاحظ أن لفظ أخلاق (Moral) يستخدم فى العادة مرادفا للفظ (Ethical) لأن اللفظ اللاتينى Moralis هو ترجمة للفظ اليونانى ἠθικός وسأستعملها فى هذا المعنى فى الفصول التالية[1].

---

(١) هذا رأى له ما يبرره ، ولكن بعض الكتاب يعتبرون اللفظ الأول Moral أعم من الثانى، لانه نسبة إلى Morals أى الاخلاق والآداب بوجه عام . أما لفظ Ethical فنسبة إلى Ethics أى علم الاخلاق بمعنى البحث العلمى فى الاخلاق بوجه عام ، وبهذا يمكن التفرقة بين اللفظين المشار إليهما فى صلب الكلام بأن نقول إن Moral يراد بها ما يتفق مع الاخلاق والآداب كما تعارف عليها الناس ، أما Ethical فيراد بها ما يتفق مع مبادىء علم الاخلاق وواضح أن المعنى الثانى أخص من الاول وأننا بهذا نتلافى ترجمة اللفظين بكلمة واحدة ، إلا إذا فرقنا اصطلاحا بين كلمة خلقى وأخلاقى . «المترجمان»

obeikandl.com